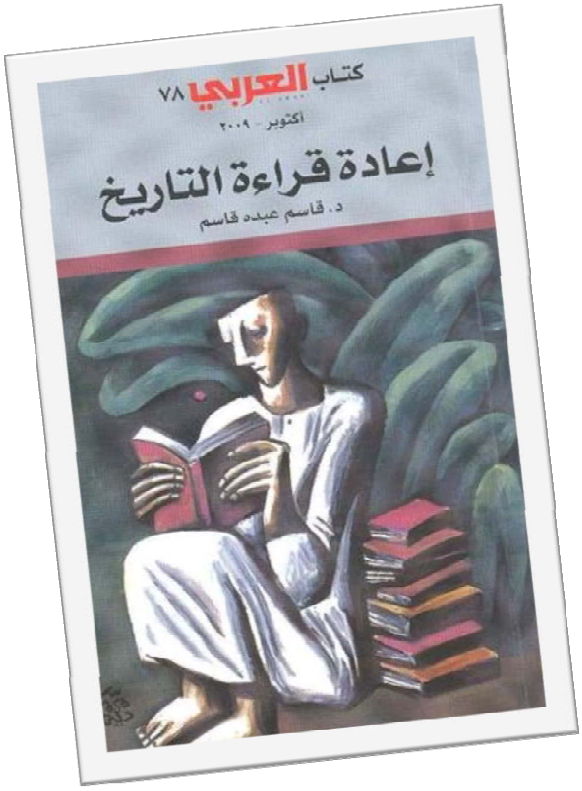

إعادة قراءة التاريخ

المؤلف: أ.د. قاسم عبده قاسم

الناشر: مجلة العربي

الكويت، أكتوبر ٢٠٠٩

كتاب العربي: ٧٨

عرض

محمد بن ساعو

أستاذ التعليم المتوسط

ماجستير في التاريخ الوسيط

ولاية برج بوعريريج – الجمهورية الجزائرية

الكتاب بعنوان: "إعادة قراءة التاريخ"، لمؤلفه الدكتور قاسم عبده قاسم، الطبعة الأولى، مجلة العربي التابعة لوزارة الإعلام الكويتية، في إطار كتاب العربي ويحمل الرقم (٧٨) في هذه السلسلة، ونشر بتاريخ: ١٥ أكتوبر ٢٠٠٩، وهذه الطبعة الورقية من القطع الصغير، نوعية ورقها جيدة وبالألوان والخط واضح والطباعة راقية، والكتاب يقع في حوالي مائتي (٢٠٠) صفحة، بتقديم من الدكتور سليمان إبراهيم العسكري. وهو يضم مجموعة من المقالات، كانت قد نشرت في مجلة العربي لتأتي هذه المرة مجتمعة في كتاب واحد، وقد اجتهد الكاتب في ترتيبها وتنظيمها حتى تكون متناسقة، رغم ذلك فإن القارئ بإطلالة بسيطة على الكتاب يلاحظ تكرارًا لأفكار ومفاهيم الكاتب في مختلف المواضيع المدروسة، وربما هذا هو الشيء الوحيد الذي غفل عنه الكاتب خلال عملية تركيب وتنسيق المقالات على شكل مؤلف واحد، لكنه وفق كثيرًا في ترتيب مواضيعه وإدراجها في محورين:

المحور الأول بعنوان: (قراءة التاريخ... رؤية معاصرة) يقدم فيه الكاتب القراءات المختلفة للتاريخ، حيث تناول مواضيع: قراءة التاريخ – القراءة الشعبية للتاريخ – التاريخ والآثار- القراءة الدينية - المأثور الشعبي- اللغة - المعنى والمغزى- الوعي بالتاريخ وضرورة إعادة كتابته كما تحدث عن الأفلام التاريخية العربية. **المحور الثاني**: تاريخنا مع الأخر، تناول فيه الكاتب قضايا علاقة العرب والمسلمين مع الآخرين عمومًا، حيث تضمن هذا المحور أدب الشكوى عند يهود أوربا - الحروب الصليبية - تأثير العرب في أوربا - وكشف عن الوجه الأخر للحروب الصليبية، وعلاقة التتار بالعالم العربي...الخ.

الكاتب ناقش هذه المواضيع بكثير من الدقة والموضوعية، ويظهر ذلك من خلال محاولته ضبط المصطلحات والمفاهيم خاصةً مع اعترافه بصعوبة ذلك، لأن الكثير من المفردات مطاطة وتحتمل الكثير من المعاني، إضافة إلى اختلاف معناها من ثقافة لأخرى وهو ما يتطلب الحذر في استخدام مثل هذه المصطلحات. ومن خلال قيامي بدراسة وعرض الكتاب لاحظت أنه ليس مجرد كتاب تاريخي بالمعنى الكلاسيكي، إنما هو كتاب متعدد الأبعاد (وهو المفروض في كتب التاريخ) ويظهر من خلاله أن الكاتب حاول إسقاط الأحداث التاريخية على الواقع الحالي المعاش للاستفادة من التاريخ، وعدم تكرار أخطاء الماضي، وأخذ المعطيات التاريخية مرجعية في كيفية بناء علاقتنا مع الآخرين.

المحور الأول: قراءة التاريخ...رؤية معاصرة

١/١- قراءة التاريخ

دراسة التاريخ هي دراسة إنسانية لأنها استجابة لرغبة الإنسان في معرفة **نفسه** والآخر، والتاريخ يحمل نوعًا من الإنذار المبكر لمَنْ يعرف قراءته، وإذا كانت الدراسات الإنسانية تهتم بحفظ التجربة الإنسانية وتفسرها في الحاضر، فإن التاريخ يستلزم استدعاء الماضي وإعادة بناءه بمنهجه الإسترادي وإعادة قراءته وتفسيره لخلق صلة بينه وبين الحاضر ليفيدنا مستقبلاً. فقديمًا كانت غاية قراءة التاريخ هي تبرير مختلف الظواهر فاتخذت **القراءة** سمة أسطورية ثم جاءت القراءة الدينية للماضي للتلقين الأخلاقي والديني

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

وهناك القراءة العنصرية للتاريخ التي تبرر التحركات الاستعمارية والقراءة الاشتراكية التي تبرر القبضة الشيوعية على التجمعات الخاضعة لها، وفي ظل هذه التطورات ظهرت قراءات جديدة كالقراءة الشعبية التي تبرز دور الناس العاديين (العامة) في صناعة التاريخ.

تختلف قراءة التاريخ من عصر لآخر ومن مجتمع لآخر، فكل جيل يبحث عن العناصر التاريخية التي تفيده في توضيح الحاضر واستشراف المستقبل، ولا يتعامل المؤرخون مع الحقائق فقط إنما أيضا مع المشاعر والدوافع والأسباب، ويحاولون وضع الحقائق في سياق الحياة الاجتماعية، وهو ما يسمى "التحليل التاريخي"، فما يهمله جيل سابق قد يجد فيه جيل لاحق فائدة، فالتاريخ يعاد قراءته مرات ومرات عبر رحلة الإنسان؛ ونحن إذا رأينا أن أسلافنا جابهتهم مشكلات ما يمكننا تجنب أسبابها، وهذا هو هدف قراءة التاريخ الذي لم يتحقق على نحو فعال إلى الآن. قد تكون هذه النظرة النفعية للتاريخ محل اعتراض بعض المؤرخين المثاليين، ورغم أن التاريخ الذي كتبه القدامى يظهر أنه مجرد تدوين إلا أنه يعكس قراءة ما حسب عصره، وبتطور وسائل الحفظ والتدوين فإن مهمة المؤرخ المسجل والراوي لم تعد لها أهمية فصارت مهمة المؤرخ تفسير لماذا حدث ما حدث وليس ماذا حدث.

٢/١- القراءة الشعبية للتاريخ

الموروث الشعبي نمط من القراءة الشعبية للتاريخ، لأنه يحمل تفسيرات شعبية لأحداث تاريخية، وتتميز بخاصيتين تبدو متناقضتين: (أنها تحمل أفكار ثابتة تشكل المنحنى الثقافي في المجتمع، وأن القراءة الشعبية للأفكار الثابتة تتجدد مع كل حقبة زمنية). من خلال النثر والشعر والحكاية والعادات والخرافات والأغاني والرقصات...؛ يحمل الموروث الشعبي رؤية الشعوب لأصولها ولتاريخها وأبطاله، ويحمل التفسير الشعبي للظواهر الطبيعية.

ظل المؤرخون زمنًا طويلاً يتجاهلون الموروث الشعبي، ونتيجة التطورات التي حدثت بين الحربين العالميتين وبعدهما حدثت "الثورة التاريخية" وهي ثورة صامتة حققت من التقدم في مجال المعرفة التاريخية في الربع الأخير من القرن٢٠م ما لم يتحقق طوال تاريخ التاريخ بأسره، وكان من نتائجها تطور مناهج البحث وأدواته وتغير النظرة إلى المصادر التاريخية التي يعتمد عليها الباحثون من ناحية أخرى، وتغير النظرة القديمة للتاريخ باعتباره مرادفًا لسير الحكام إلى نظرة جديدة ترى في التاريخ مرادفًا لمسيرة البشر الحضارية، ومن ثَمَّ كانت أعمال البشر جديرة بالبحث، وأهم ما تمخض عن الثورة الصامتة هو أن التاريخ لم يعد علما ينتمي إلى الماضي إلا من حيث موضوعه، لكنه صار ينتمي للحاضر والمستقبل من حيث هدفه وفائدته، وتحولت مهمة المؤرخ من ماذا إلى لماذا حدث ما حدث وما تأثير ما حدث على حاضر الجماعة الإنسانية ومستقبلها.

إن الدراسات التاريخية السردية أصبحت غير كافية لإشباع الرغبة في المعرفة التاريخية، والموروث الشعبي يقدم لنا رؤية كلية للأحداث التاريخية، فضلاً عما تحمله من حقائق تاريخية لا تحملها المصادر التقليدية، ويرى باحثون أن الموروث الشعبي موضوع علم تاريخي هو علم الفولكلور، لأنه يحاول كشف ماضي الإنسان من زاوية أخرى غير الزوايا التي يعمل فيها علم الآثار وعلم التاريخ. لقد ضمت كتب المؤرخين العرب من عصور التألق الفكري الكثير من عناصر الموروث الشعبي، وبه حقائق وإيحاءات تاريخية فـ (كليلة ودمنه) بها إشارة للحروب الصليبية والحروب ضد الروم، و لم تخضع الكتابات التراثية إلى الآن إلى دراسة منهجية منظمة لأن الباحث لا يمكنه القيام بذلك بمفرده، إنما يجب أن توكل إلى مؤسسة منظمة. وبهذا فالقراءة الشعبية للتاريخ نوع من إعادة تفسير الوقائع لصالح الجماعة وسبب ذلك أن المؤرخين سابقًا ينسبون الفعل التاريخي إلى شخص الحاكم الفرد ويحولون الناس إلى قطيع من الأغنام التي يقودها هذا الحاكم، ولأن هذا غير صحيح فالقراءة الشعبية تعيد إثبات دور الناس الذين صنعوا التاريخ حقيقة.

٣/١- التاريخ و الآثار:...تكامل أم تفاصل؟!

يعتبر التاريخ أكثر فروع العلم الإنساني ارتباطًا بالإنسان، وتعتبر رسوم الكهوف بداية باكرة في سبيل كتابة قصة الإنسان، وجاءت الروايات التاريخية الأولى مثقلة بالأسطورة، ثم تطورت العلوم ومنها التاريخ الذي خرج من رحم الأسطورة إلى العلم، ومن السرد والحكاية إلى السببية، كما تطورت مناهج البحث وظهرت المصادر التي يعتمد عليها المؤرخ، منها الآثار التي ساهمت في سد الفجوة المعرفية، وأصبحت جهود علماء الآثار بديلاً مناسبًا عن التسجيلات التاريخية المكتوبة وتمدنا أحيانًا كثيرة بمعلومات لم تذكر في المصادر التقليدية، خاصةً وأن كتابات هذه المصادر كتبت لتكون تاريخًا بما يشوبها فضلاً عن كتابتها بعد وقوع الحادث، أما المصادر الأخرى (تراث شعبي- فن-أدب-آثار) فقد وجدت دون قصد أن تكون تاريخًا لكنها في معظم الأحيان جاءت تلقائية أو كانت هدفًا اجتماعي- ثقافي- ديني ، كالأسواق؛ المساجد؛ رغم أن هناك آثار قصد بها أن تكون تاريخ، كبعض منشآت المماليك والعثمانيين، ومنه فإنه لا يمكن أخذ الآثار كما هي، لكن يجب قراءتها في ضوء المصادر الأخرى.

٤/١- القراءة الدينية للتاريخ

حاول الإنسان ترقيع النقص في ذاكرة التاريخ بالأسطوريات، فكانت الأسطورة تحكم التاريخ لأنها حكاية يلعب دورها الآلهة وأشباههم، وبمجيء الأديان السماوية كان لكل دين رؤية للإنسان في دوره وعلاقته، وبهذا اختلفت القراءة في هدفها من دين لآخر.

-القراءة اليهودية للتاريخ: ركزت على فكرة الاختيار والوعد المقدس، والكتابات التاريخية العبرانية فيها اختلاط بين الفكر التاريخي والديني وقامت بالتقليل من دور الآلهة، وفكرة (الاختيار) جعلتهم يسجلون أن الرب تدخل في توجيه حركة التاريخ لمصلحتهم،

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

وتدور فكرة التاريخ عند اليهود حول فلسفة غائية هدفها طمأنة اليهود إلى الوعد المقدس بالأرض وأن الله سوف يتدخل في النهاية لصالح شعبه المختار.

-**القراءة المسيحية للتاريخ**: هي ذات هدف مستقبلي أيضًا والحياة مرحلة تتوسط مجيء المسيح الأول وصلبه ومجيئه الثاني في آخر الزمان لتدمير الشر والقضاء على الدجال، ولقد جاء المسيح لخلاص البشرية، ورضي لنفسه بالصلب فداء للبشر وعلى المؤمنين إتباع نهجه في التضحية، فالقراءة المسيحية ترى أن تاريخ البشرية قبل المسيح كان تمهيدًا لقدومه، وتاريخها بعده سعى للخلاص وانتظار قدومه فالتاريخ كتبه الله وليس للإنسان أي دور إيجابي فيه وعليه انتظار إرادة الله، وفي إطار فكرة التاريخ المسيحية قسم أوغسطين تاريخ العالم إلى ستة عصور، وتأثر بهذه الفكرة مؤرخو العصور الوسطى، وكتبوا الأحداث الجارية آنذاك وفق القراءة الكاثوليكية، وهي قراءة غنية بالغيبيات تمجد الملوك المناصرين للكنيسة، ومن عيوبها الإيمان الأعمى بروايات الشهود العيان وتضمنها عناصر غيبية.

-**القراءة الإسلامية للتاريخ**: تختلف جذريًا عن القراءتين السابقتين، ففكرة التاريخ في القرآن الكريم تقوم على أن التاريخ فعل إنساني فهو نتاج تفاعل الإنسان مع البيئة، والتغير لا يحدث فجأة إنما بتراكم بطيء للأسباب التي تؤدي إليه، فالتاريخ لا يجري اعتباطًا إنما يحمله قوانين وضعها الله لكن هذه القوانين لا تمنع الإنسان من أداء دوره التاريخي، إنما تجعله مسئولاً عنه لأن الله ميزه بالعقل والحرية، وهذا هو النهج الذي اتبعه المؤرخون المسلمون، فساروا على أن التاريخ أداة في خدمة الجانب الأخلاقي والتعليمي في المجتمع المسلم.

٥/١- المأثور الشعبي...هل يبقى؟

كانت الكتابة أعظم ابتكارات الإنسان والوعاء الحافظ للتاريخ، وكان يمكن أن يختفي المأثور الشفاهي مع ظهورها لكنه استمر بدور كبير، وهو البذرة الأولى التي نما منها المأثور الشعبي ولعبت الكتابة دورها في حفظ جزء مهم منه، وبقي الكثير منها يتداول دون كتابة، لكن هذا لا يعني أن المأثور الشعبي مرتبط باللغات الشفاهية، وظهور الطباعة كان سيكون خطوة نحو تلاشي المأثور الشعبي لو أن الأمر حقًا مرتبط بالتطور التكنولوجي وليس مرتبطًا بالتركيب العقلي والنفسي للإنسان ذاته، وبقيت الشفاهية أيضًا لأنها تمثل الجماهير وحقها النفسي التعويضي مقابل الطباعة التي لم تكن متاحة للجميع، وباكتشاف الراديو والتلفاز ظن البعض أن عهد الكتاب قد ولى، لكن لم يحدث.

الدور الثقافي الاجتماعي للمأثور الشعبي لا يزال مطلوبًا، لأنه نتاج ثقافي يرتبط بالجماعة الإنسانية، ولأن الثقافة فعل شعبي وليس ممارسة حكومية، فالمأثور الشعبي مرتبط بوجود الشعب نفسه، ومثلما لم تؤد المطبعة إلى اختفاء الشفاهية فإن العولمة، والنشر الإلكتروني، لن يحرم الإنسان من متعة التفاعل الحميمي مع الكتاب، فربما تنجح العولمة في المجال الاقتصادي والسياسي لكنها لن تنجح في كبت الهوية الثقافية لأي جماعة إنسانية.

٦/١- اللغة سلاحًا

الترويج لفكرة إيديولوجية وإعلامية ما، يمتزج بالاختيار الواعي والمدقق للمفردات اللغوية المستخدمة، وفي تاريخ الصراعات البشرية هناك اهتمام باختيار الخطاب المهد للفعل، ولكل عصر خطابه فالاقتناع هو الذي يؤدي إلى العمل، وتطور الصراع السياسي إلى حرب أو سلم لا يتم تلقائيًا إنما تلعب اللغة دورًا هامًا في تهيئة العقول لقبول إحدى الحالتين، واللغة تربي قناعات لدى كل طرف في عدالة موقفه اتجاه موقف خصمه، وقد تؤدي إلى البلبلة والارتباك، إن لم تكن كذلك، وسوف نختار مثالين للدلالة على ذلك:

١- استخدم الصليبيون اللغة لتهيئة الغرب الأوربي لشن حرب ضد المسلمين بشكل يناسب العقل الأوربي، واخلطوا الخطاب الديني بالسياسي وألحقوا بالمسلمين الصفات الحقيرة والعدائية، ووصفوهم بالكفار- عبدة صنم الرسول (ﷺ)، وفي المقابل تصف المسيحيين الكاثوليك بأنهم شعب الله المختار- الشجعان-جنود الرب-جيش المسيح-الحجاج، وتعدهم بملكية فلسطين ووصفت الحملات الصليبية برحلات الحج وربطها بالصليب، وباقتناع الأوروبيين بهذه اللغة تجندوا للهجوم على المسلمين، الذين فهموا هم كذلك استعمال لغتهم بفضل الجهاد، بيت المقدس (الإسراء و المعراج)، وصف الفرنجة بالكفار وانتهى الصراع باسترداد عكا آخر المعاقل للصليبية في ١٢٩١م.

٢- روجت الصهيونية في فلسطين لمصطلحات مظللة (أرض بلا شعب لشعب بلا أرض)، (وطن قومي لليهود)، (شعب الله المختار)، (الأرض الموعودة)، (عودة الشتات)، (حرب التحرير)، (الشرق الأوسط)، (قضية فلسطين)، (التطبيع)، واهتم العرب بالجانب العسكري فقط، وفشلوا في استخدام اللغة فتحدثوا عن النكبة واللاجئين، وأصر الجانب الإسرائيلي مؤخرًا على إلزام منظمة التحرير الفلسطينية بتغيير مفردات بميثاقها لتصبح قيودا تكبل الفلسطينيين، وظهرت مفردات العنف المتبادل؛ العمليات الانتحارية؛ الإرهابية، وفي مقابل فصاحة الخطاب الإسرائيلي نلاحظ عجز الخطاب العربي.

٧/١- التسامح... المعنى والمغزى

التسامح لغة هو التغاضي عن خطأ ارتكبه آخر والتساهل في حقه والصبر على إساءة، وفكرة التسامح تبدوا نابعة من ثقافة غير متسامحة في جوهرها، فالمنادون به يرون أنهم على حق وغيرهم على باطل ولكن الضرورة تفرض عليهم التسامح، فالمصطلح ذو منظور استعلائي، والتراث العربي الإسلامي لا يحتوي هذا المصطلح، إنما تسرب إليه نتيجة ترجمة الأعمال الغربية. الحضارة الإسلامية هي التي سمحت لغيرها بالعيش فيها والإبداع، والحضارة الغربية التي

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

أفرزت مصطلح (التسامح) تقوم على فكرة استهلاكية مستمدة دينيا من فكرة "شعب الله المختار". الحضارة الغربية صاغت مفهوم التسامح لحل مشكلات ثقافية اجتماعية أوربية أواخر العصور الوسطى وفي بداية عصر النهضة بعد أن تفاقمت أزمتها، نتيجة الصراع بين الكنيسة الكاثوليكية والمتمردين، لكن أوربا مارست التسامح داخل بعض بلدانها فقط ولم تمارسه تجاه (الآخر) غير الأوربي وكذلك فعلت الولايات المتحدة الأمريكية بعد الحرب العالمية الثانية، ومع بداية تسعينيات القرن العشرون الميلادي صار الشعار مطروحًا بعد ما أثيرت مسألة "صدام - حوار الحضارات" فبعد سقوط الاتحاد السوفيتي وجد الغرب الرأسمالي نفسه بحاجة إلى اختراع عدو جديد هو المسلمون. وزادت أحداث سبتمبر٢٠٠١ هياج القوى المتشددة، ورأى أنصار نظرية صدام الحضارات دليل على صحة رأيهم، بينما نادى أنصار حوار الحضارات بالتسامح وفهم الآخر، ونلاحظ أن هناك حكومات إسلامية تدعوا للتسامح والحوار مع الغرب الغاصب رغم أن هذه الحكومات نفسها لا تمارس التسامح مع القوى السياسية الأخرى داخل بلادها، كما أنها تنكر وجود الأخر.

٨/١- الوعي بالتاريخ...الوعي بالذات

التاريخ مرتبط بالجماعة الإنسانية، والإنسان الذي يعرف نفسه يتصرف اتجاه الآخر بثقة في النفس لذا تسعى الجماعة الإنسانية إلى تلقين أبناءها تاريخ الأجداد، ومعرفة الماضي يقودنا إلى التصرف على نحو سليم في الحاضر ووضع خطط التنمية المستقبلية، فالمعرفة بالذات من خلال الوعي بالتاريخ تبعث على الثقة وتحول دون الاعتماد على الآخر. إن الاستبداد لم يكن من سمات العالم العربي، إنما كان هناك نوع من النظام التمثيلي وعند مجيء الاستعمار حاول تكريس نماذجه السياسية، وبعد الاستقلال لم يحاول العرب استعادة نظامهم السابق وتجديده إنما انتهجوا النموذج الأوربي وكان الحصاد مزيد من الاستبداد، وارتباط بالقوى الاستعمارية وخضوع لها، وفي المجال الثقافي نلاحظ ارتباك وعي العرب بتاريخهم وتجسد هذا في تلك الحركات السلفية التي انتشرت في الوطن العربي وكانت بمنزلة هروب إلى الماضي. التحول من مفهوم التاريخ العبء إلى التاريخ الحافز لا يزال في أطواره الأولى، فما حدث لفلسطين أيقظ نوعًا من الوعي بالذات وبالتاريخ.

٩/١- التاريخ و الرواية...تفاضل أم تكامل؟

بين الراوية والتاريخ تشابهات واختلافات من حيث تركيب كل منهما، ومنهجهما وطبيعة بنية كل منهما، والتاريخ شكل من أشكال الرواية لأحداث الماضي ونمط من الحكاية عن الأشخاص والظواهر الماضية والرواية هي تسجيل تاريخي لظواهر اجتماعية. في التاريخ الثالوث "الإنسان/الزمان/المكان" هو الذي يضفي على الحادثة التاريخية تاريخيتها؛ أما في الرواية فالإنسان هو صانع أحداثها وفق شروط الزمان والمكان مع ما تحمله من خيال. وقبل أن يتطور التاريخ إلى ما هو عليه اليوم كانت وظيفة المؤرخ لا تختلف عن وظيفة الراوي، إن الظروف هي من استدعت أن يكون المؤرخ آنذاك روائيا، ومن أهم أوجه الاختلاف بين الراوي والمؤرخ أن وظيفتهما مختلفة والإطار الذي يحكم عمل الروائي هو الفن، أما المؤرخ فهو المنهج العلمي، والروائي يستخدم الخيال والمؤرخ لا يستخدمه إلا عند الاستنباط والاستنتاج، وعلى المؤرخ تفسير الحادثة أما الروائي فعليه أن يحكي لا يفسر كما أنه يستطيع التعامل مع حركة الإنسان في الكون باعتبارها مادة خام يمكن تشكيلها، ليس على أنها مادة مشكلة كما يتعامل معها المؤرخ، والتاريخ يقدم لنا الماضي في صورة أكاديمية تناسب المؤرخين، والرواية تقدمه لنا في صورة حيوية تجذب كل شرائح المجتمع، فالعلاقة بينهما تكاملية.

١٠/١- تاريخنا... هل من الضروري إعادة كتابته؟

ما دامت الجماعة الإنسانية بحاجة إلى تجديد وعيها بتاريخها فقراءة وتفسير التاريخ تتعدد، فمهمة المؤرخ استقراء مصادره بشهاداتها، ثم الفهم والتفسير، وعند الوصول إلى نتيجة يمكن استخدامها لخدمة أهداف الجماعة الإنسانية، ففي كل مرة يتم قراءة التاريخ من جانب ما خدمة لأغراض المجتمع لمساعدته في التعامل مع حاضره، وإعادة قراءة التاريخ ليس تزويرا له إنما هي ممارسة فكرية لخدمة الحاضر. وهناك نقاط ايجابية تحسب للدراسات التاريخية العربية كالنجاح في تعريب بعض فروع التاريخ - تزايد عدد الجمعيات المهتمة **بالدراسات** الأكاديمية العربية الفاهمة لحقيقة الوظيفة التاريخية- نجاح المؤرخين العرب في إحداث شرخ في الصورة التي رسمتها القراءة الصهيونية الإستشرافية لدراسة الحضارة العربية الإسلامية، لكن هناك نقاط سلبية: (سيادة المفهوم الأوربي في تقسيم العصور التاريخية - تسلط المصطلحات الأوربية التي تخدم القراءة الأوربية- ضآلة الموارد المالية المخصصة- الخصومة بين الحكام العرب والبحث العلمي)، وما تم تحقيقه من إعادة قراءة التاريخ تم بجهود فردية وليس مؤسسية وهو ما أدى إلى عدم توفر الشروط، كما أن الاستبداد السياسي انعكس على الحرية الفكرية.

١١/١- هل هناك أفلام تاريخية عربية؟

السينما فن شامل وجمهورها كبير، وهي ذات تأثير في إشاعة المعرفة التاريخية، والفيلم التاريخي هو عمل فني يتخذ من التاريخ موضوعا له، ومادام القائمون على الفيلم التاريخي قد اختاروا التاريخ موضوعًا فلا يجوز لهم العبث بالحقيقة التاريخية لكن ذلك لا يعني أن يتحول الفيلم إلى محاضرة أكاديمية مملة. وتعرف السينما التاريخية نجاحًا وأرباحًا هائلة، وقد أنتجت السينما الأمريكية أفلامًا تاريخية فيها دقة تقرب من الحقيقة التاريخية في الشخصيات؛ الملابس؛ الديكور؛ لكن إذا اصطدمت الدقة التاريخية بالأرباح المالية فهوليود تختار الأخيرة، وقد تمكنت تقنيات الكومبيوتر من تصوير بيئة حقيقية للأوضاع التاريخية. إن الأفلام التاريخية في الإنتاج المصري مثلاً قليلة، وأول فيلم يحمل اسم تاريخي سنة ١٩٣٥ هو فيلم "شجرة الدر" الذي ابتعد إلى حد ما عن الحقيقة

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

التاريخية، وأفلام ليلى البدوية؛ قيس وليلى؛ صلاح الدين الأيوبي؛ كليوباترا؛ ظهور الإسلام؛ انتصار الإسلام... وكلها بين (١٩٢٧-١٩٥١) وهي لا تتطابق مع الحقيقة التاريخية، ولا علاقة لديكورها بالديكور الحقيقي. إن الجماهير تقبل على معرفة التاريخ من خلال السينما أكثر من أي وسيط آخر، والفيلم التاريخي الحقيقي هو الذي يمكن من بناء الهوية الوطنية ويجب أن يكون على ثلاثية: العلم التاريخي؛ الفن السينمائي؛ الحبكة الدرامية.

المحور الثاني: تاريخنا مع الآخر

١/٢- أدب الشكوى عند يهود أوربا... قراءة تاريخية لقضية الهولوكوست

يمثل أدب الشكوى عند يهود أوربا شطرًا من التراث الأدبي، ويمثل القضية الخلفية التي خرجت منها حكايات الهولوكوست، ونشأ هذا النوع عند الطائفة الألمانية زمن الحروب الصليبية أواخر القرن الحادي عشر الميلادي، واستمر تراكمه إلى منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، فقد هاجم الصليبيون اليهود عند انطلاق الحركة الصليبية، ومذكرات "ماينس" نموذج من أدب الشكوى اليهودي حيث تتضمن أحوال اليهود بماينس الألمانية، وتضمنت مبالغات كثيرة. حرص اليهود على تسجيل معاناتهم على أيدي الكاثوليك أثناء الحروب الصليبية شكل نوعًا من التراث الثقافي والنفسي جعلهم يواصلون تغذية أدب الشكوى على مر العصور، وتصاعد هذا الحرص في العصر الحديث وحاولوا إدماجها في إطار "معاداة السامية" **وابتزوا** بها الضمير الأوربي وأطلق الباحثون اليهود اسم "الهولوكوست الأول" على اضطهادات الصليبين على يهود أوربا، في موجة الغضب الدموي العارم ضد اليهود بالراين، وهو ما جعله اليهود من موضوعات أدب الشكوى وهو موقف إيديولوجي صهيوني حاول التحايل على الواقع التاريخي، ثم تحالفت الصهيونية والرأسمالية ضد النازية خلال الحرب العالمية الثانية وبعدها مما أكسبهم فلسطين، وأصبح اليهود يبتزون ألمانيا بـ "أسطورة الهولوكوست" والكلام حول الهولوكوست يعنينا لأن الترويج له يعني أرضًا مغتصبة، وشعبًا مشردًا، وتخلفًا عربيًا.

٢/٢- صليبيون...صهاينة...عرب: صور من القدس

في يوم الجمعة ١٥يوليو١٠٩٩م وقت الظهيرة (ساعة صلب المسيح عند المسيحيين) تمكن الفرنج من اقتحام القدس وأباحوها لثلاثة أيام للنهب، وأقام الصليبيون أداء الشكر في كنيسة القيامة، هذه الصورة تتناقض مع صورتين وتتشابه مع صورتين: **الصورتان المتناقضتان**: ١- ترجع إلى النصف الأول من ق ٧م عندما سلم الخليفة عمر بن الخطاب المدينة بالأمان وحفظ العهد الذي أعطاه للنصارى وأصبحت مدينة للتسامح، إلى أن جاء الهجوم الصليبي، وأثبت الحكام العرب قصورهم وقام الفرنج بمذابحهم وطالب الرأي العام بالجهاد فخرج المجاهدون: عماد الدين ونور الدين زنكي، صلاح الدين الأيوبي، فاستردوا الرهائن، وفشلت الحرب الصليبية. ٢- الانتصار في حطين١١٨٧م، وعودة القدس إلى المسلمين يوم الجمعة ٠٢ أكتوبر ١١٨٧م، وخروج الفرنج من المدينة دون إسالة قطرة دم، وهي صورة مختلفة عما حدث قبل ٨٨ عام. **الصورتان المتشابهتان:** مع الصورة الوحشية الأولى في يوم ٠٧ يونيو١٩٦٧م احتلت إسرائيل القدس العربية القديمة وأعلن اليهود أنها عاصمتهم الأبدية، وطردوا السكان المجاورين وحولوا سكناتهم إلى مدارس يهودية، فالتاريخ يثبت أن العدوان لا يضمن البقاء، والمقاومة تنتصر في النهاية.

٣/٢- الحروب الصليبية... متى تكون النهاية؟

عرفت الحروب الصليبية في بدايتها بالحج، الحملة المقدسة، حملة الرب، وعرفها المؤرخون المسلمون المعاصرون بحركة الفرنج؛ ثم ظهر اسم الحروب الصليبية والصليبيون، ودل على الحروب الاستيطانية ضد المسلمين حتى القرن الثامن عشر الميلادي، وتبنى الاستعمار الانجليزي والفرنسي فكرة الحروب الصليبية. وبعد سقوط الاتحاد السوفياتي روجت الولايات المتحدة الأمريكية للخطر الإسلامي، وروج باحثون أن الصراع الإسلامي من جهة والمسيحي الصهيوني من أخرى حتمية تاريخية، إن مصطلح الحملات الصليبية مازال منتشرًا في أدبيات الغرب لكن بمدلول آخر فهو يوحي بالتضحية بالنفس والشجاعة واستقر في وجدان الغرب أن الحملة الصليبية حملة خيرة نبيلة القصد والهدف (رعاية المرضى، المنكوبين، جمع التبرعات) وربما الموروث الشعبي الأوربي المتداول حول الحروب الصليبية هو سبب هذه المعاني، فبوش (Bush) عند حديثه عن الحملة الصليبية ضد الإرهاب لم يكن خارجًا عن السياق العام لمفاهيم الثقافة الغربية.

٤/٢- الأنا و الآخر ...أو(نحن) و(هم)

التمسك بالخصوصية الثقافية لا يعني رفض الآخر إنما التعامل والتعاون والاعتماد المتبادل وصيغة الاعتراف والحوار هو ما يعبر عنه بالتسامح، والموقف الذي يقبل الآخر ويقر بحقه في الوجود والاختلاف نشأ عن التطورات التاريخية والتقدم العلمي. الانقسام الذي حدث في الغرب بسبب الحرب على العراق يكشف على أن (نحن) لم تعد في مواجهة (هم)، والمشكلة تكمن في ترجمة كلمة التسامح من اللغات الأوربية، ففي العربية المسامحة والسماح هي التساهل والكرم، والكلمة الأوربية (toleration) تعني التسامح على كره والتحمل، إن المظاهرات المعادية للعولمة التي اندلعت في معظم أنحاء العالم وحتى داخل أوربا والولايات المتحدة الأمريكية تعبر عن رفض (نحن) الناس العاديين لسيطرة (هم) أصحاب الاحتكارات الرأسمالية إذن هذه القسمة الجديدة نحن وهم لا تنادي بالتسامح إنما تطالب بحقوق، لم تعد (نحن) جزئية محلية إقليمية أو حتى ثقافية في مواجهة (هم) في المستويات نفسها، فالحديث عن نحن وهم غير ثابتين، إذ بعد أحداث سبتمبر٢٠٠١ هناك حكام وصفوا داخل دائرة نحن التي أرادها بوش لكنهم لا يعبرون عن رأي شعوبهم، فهل يمكن أن نتطلع إلى إقناع (الآخر) خارج حدودنا بأن (يتسامح) معنا على أساس فكرة الحوار، ونحن لا نؤمن بهذه الفكرة ولا نمارس الحوار والقبول بالآخر داخل بلادنا؟!.

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

٥/٢- عندما أثر العرب في أوربا

فتح المسلمون الشواطئ الشرقية والجنوبية للمتوسط وشبه جزيرة أيبيريا، ولم يكن الأمر مجرد غزو عسكري إنما استقرار وبناء وحققت الحضارة العربية الإسلامية إنجازًا معرفيًا هائلاً وامتدت تأثيراتها إلى الحضارات الأخرى، فوصلت الأرقام العربية إلى أوربا ودخلت مصطلحات تجارية عربية ومنسوجات عربية ونقلت تكنولوجيا الزراعة إلى أوربا الغربية والزجاج والفخار المطلي بالزجاج والورق، وأثر العرب في الهندسة الميكانيكية في أوربا الغربية في العصور الوسطى، رغم صعوبة إثبات تنقل الأفكار التكنولوجية لأنها تنتقل كأفكار وحكايات وتقليد، وأثرت الفنون التشكيلية الإسلامية في المشغولات المعدنية الأوربية الوسيطة من حيث النماذج والأشكال والتصميمات والتقنيات، كما تأثر الأوربيون في مجال الطلاء، أما في مجال الأدب فقد تأثر دانتي اليجيري (Dante Alighieri) في كوميديته الإلهية (القرن الرابع عشر الميلادي) بتأثيرات إسلامية، وتأثرت العادات والتقاليد بنظائرها العربية كالتنجيم وقراءة الطالع ذات الأصول العربية.

٦/٢- المسلمون يتعرفون على الآخر

كان موقف المسلمين من حضارة القدماء من أهم عوامل بناء حضارتهم فنقلوا علوم الفرس واليونان والهند وتعلموا منهم كثيرًا، وأدى انتشار الإسلام إلى انقسام عالم المتوسط إلى الحضارة البيزنطية/ الأوربية/ الإسلامية، وكان الصدام والتفاعل بينها أحد أهم موضوعات تاريخ العصور الوسطى ولا يزال يشكل الأساس التاريخي للعلاقات بين الإسلام والغرب حتى الآن. قامت الدولة الأموية بترجمة أعمال اليونان، وأصبحت العملية أكثر تنظيمًا في العصر العباسي، ولم يكن هناك تعصب من المسلمين اتجاه الكتاب الأجانب والقدماء وهو ما أسهم في بناء الحضارة الإسلامية، ويعرف القرن (٣هـ/٩م) بقرن نضج التفاعل بين ما جاء به الإسلام وبين حركة الترجمة والموروث الثقافي للشعوب التي اعتنقت الإسلام. وصارت مؤلفات أرسطو معروفة عند الغرب بفضل الترجمات العربية التي تتم فرديا، وكانت صقلية أهم مراكز الترجمة عن العربية إضافة إلى قرطبة وباقي مدن الأندلس وإقليم البروفانس، ونتيجة هذه الترجمة تحسنت الصورة عن الأخر ولم يعد ذلك المتوحش، وخلق ابن رشد تيارًا في الفلسفة الأوربية "الرشديين اللاتين". إضافة إلى الترجمة كانت التجارة إحدى سبل التعرف على الأخر وكانت لها تأثيرات ثقافية، فالترجمة لعبت دورًا هامًا في العلاقات بين الحضارات الثلاث، والتفاعل بين الحضارات هو البديل الوحيد المعقول لمنطق صراع الحضارات الذي يروج له بعض مفكري العولمة.

٧/٢- الوجه الأخر للحروب الصليبية... دموع المعتدين ومخاوفهم

ترتبط الحرب بكل مظاهر العنف، والحروب الصليبية ليست استثناء في ذلك، وكشفت مصادر تاريخ الحروب الصليبية التي كانت محل تفسير من الباحثين الأوهام والضبابية الرومانسية للحركة الصليبية في الثقافة الغربية الحديثة، وكانت الذريعة الدينية غطاء لأطماع الارستقراطية الإقطاعية في التوسع، والحروب الصليبية بالنسبة لنا عدوان وهي كذلك بالنسبة للدراسات الغربية الحديثة لكنها كانت تضحيات وبطولات في المجتمعات التي خرج منها الصليبيون آنذاك فقد انتشرت مشاهد الوداع بالدموع من أهل الصليبي وصورت الأشعار ذلك. وقد كان خطر الموت، الإصابة، أو الخراب المالي هاجس يراود كل صليبي إضافة إلى قلقهم على أسرهم وممتلكاتهم، فكان بعضهم يتبرع بأمواله للدير ويكثر الصلوات حتى يعود سالمًا، وهناك من يوصي على أولاده وممتلكاته لكن الكثير منهم تعرض لهم الطامعون.

٨/٢- أوربا والمسلمون...التطور التاريخي الآخر

كان الدين غطاءً لكثير من جوانب العلاقات بين المسلمين والمسيحيين، فكلا الطرفان يقدسان مزارات مشتركة ويجلون أبطال قصص الكتاب، ورغم أن الإسلام يتحدث باحترام عن مريم العذراء والسيد المسيح إلا أن هناك فروق جوهرية بين الديانتين تكون حواجز بين الأتباع كرفض المسلمين لألوهية المسيح والثالوث وحادثة الصلب وعدم اعتراف المسيحية بالإسلام ومحمد. (١) في الوقت الذي كان الإسلام ينتشر في أقوام وحضارات لها آداب مكتوبة كان الأوربيون يعملون على نشر المسيحية في أقوام الجرمان، وكانوا في حالة تلقي فقط. (٢) جاء الإسلام بلغة لم تكن منتشرة في العالم القديم وهي العربية، أما الكنيسة الكاثوليكية فقد حملت اللاتينية إلى أمم جديدة (الجرمان)، هذان السببان في التباعد بين المسلمين والمسيحيين في القرن (٢هـ/٨م)، ما عدا الوجود الإسلامي في الأندلس، فقد كان الجهاد والبعد أهم أسباب التباعد وعدم التواصل، وكان الجهل بالإسلام مطبقًا أمام رجال الكنيسة فوقفوا أسرى العداء ضد الإسلام، فنشر متعصبون منهم أفكار سلبية عنه، وميدانيًا كان نجاح الإسلام متجسدًا في وجوده القوي في عالم البحر المتوسط، أما في جانب المسلمين فلم تكن المشكلة المعرفية بهذه الحدة، فقد حمل القرآن الكريم الكثير من المعلومات عن الطرف الآخر، كما أن المسيحية كانت منتشرة بمناطق أصبحت إسلامية، وتحول بعض المسيحيين إلى الإسلام، كما ساهمت عملية الترجمة في معرفة المسيحي لكن معرفيًا كان الغرب الأوربي باستثناء إسبانيا، جنوب إيطاليا وجزر المتوسط منطقة مجهولة، فالمسلمون لم يشعروا بحاجة لمعرفة الفرنجي، فكلا الطرفين كانا مجهولان لدى الآخر ومشوش وغامض الصورة.

٩/٢- عن الشعر والحرب أغاني الحروب الصليبية

شهد القرن الثاني عشر الميلادي نجاح الحركة الصليبية في إقامة كيان استيطاني بمنطقة العرب ثم الانهزام في حطين، وظهر ما يعرف بنهضة القرن الثاني عشر الميلادي، لكن الأمية كانت سائدة، وفي ظل هذه الظروف كانت الأغاني وسيلة مهمة في مخاطبة الناس، والتي كانت تكتب لتدغدغ مشاعر أبناء الأرستقراطية ثم استجابت للحروب الصليبية، ومن منتصف القرن الثاني عشر الميلادي بدأت

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

تظهر أخبار الحملات الصليبية في الأغاني المكتوبة باللغات المحلية. ولم يبق من الأغاني التي تتحدث عن الحملة الصليبية سوى أنشودة أنطاكية التي كتبت بالفرنسية، كما كانت هناك أغاني حول الحملة الصليبية الثانية وانتزاع المسلمين للرها، وكتب بعض هذه الأغاني قادة الحملات الصليبية، وورد فيها تبجيل للأرستقراطيين وتمييزهم عن باقي الطبقات كما خص الفرسان ببعض الأغاني، وهناك أغاني من وجهة نظر المرأة التي تركها الصليبي وراءه.

١٠/٢- التتار و العالم العربي: الوجه الآخر

يرتبط ذكر التتار في التاريخ غالبًا بالحرب، لكن هناك علاقات إيجابية على مستويات أخرى بين العالم العربي والتتار، مما جعل التتار القفجاق أقرب إلى العالم الإسلامي فأصبح الإسلام يجتذب أعداء الأمس الذين قضوا على الخلافة العباسية ثم أصبحوا من أشد المدافعين عن الإسلام، وكانت العلاقات تتوطد بين المماليك بمصر والشام والتتار، وكان اعتناق قازان (حاكم خرسان) للإسلام نقطة تحول في العلاقات، وكانت هناك ملامح ايجابية للعلاقة بين الطرفين:

١- أن السلطان المملوكي العادل زين الدين كتبغا (٦٩٤-٦٩٦هـ) كان من أصل مغولي.

٢- هناك الكثير من التتار الذين هاجروا إلى مصر من عهد بيبرس وخدموا السلطة.

٣- كانت هجرات التتار إلى مصر والشام مستمرة في عصر المماليك (الدولة الأولى)، ونظرًا لجمالهم أقبل الناس على الزواج بهم فاندمجوا في المجتمع.

٤- أسهم التتار في التصوف الإسلامي كالتتاري الشيخ "براق".

هذه الأمثلة الأربعة تؤكد أن التتار لعبوا أدوارًا مهمة في العالم العربي، وكان منهم كبار العسكريين وتأثروا بالحياة بمصر والشام، وكان التأثير المتبادل على مستوى العادات والتقاليد.

١١/٢- المسلمون في عيني أسير صيني

نشأت مشكلة دبلوماسية حينما رفض وفد من المسلمين السجود للإمبراطور الصيني من أسرة تانج وذلك سنة ٧١٣م، وكان أمراء الصغد (أوزباكستان) يرسلون السفارات لملك الصين ليساعدهم في التدخل لمساعدتهم ضد المسلمين، والمواجهة المباشرة الوحيدة بين الصين والمسلمين هي معركة طراز يوليو٧٥١م، وانتهت بانتصار المسلمين لكنهم لم يستغلوها ويتقدموا شرقًا، كما أنه لا توجد مصادر عربية عن المعركة. وتم أسر بعض الصينيين من الجنود، وقد ترك أحد هؤلاء الأسرى "توهوان" الذي نقل إلى بغداد وبقي بها (١١ سنة) تقريرًا عن الحياة في العراق بعد إطلاق سراحه وعودته إلى بلاده سنة ٧٦٢م، وهو يعبر عن رؤية أجنبي لعادات وتقاليد مجتمع مسلم، ويكشف في كتابه عن مجتمع مسلم ناضج وهي الصورة التي يعرفها الناس عن ذلك العصر، فيذكر حتى أخلاق المسلمين وعباداتهم وعاداتهم وعن خطبة الخليفة يوم الجمعة وما يدعوا فيها الناس، وقد رسم هذا الأسير صورة مجتمع مسلم ملتزم بتعاليم دينه كارتداء النساء الحجاب وتحريم الخمور، ومجتمع يعيش الرفاهية في جميع الطبقات في المدن والريف كما يشير إلى تأثير الصناعيين الصينيين في بعض الصناعات في العراق.

أهمية الكتاب

"إعادة قراءة التاريخ" للدكتور قاسم عبده قاسم كتاب ذوا قيمة وأهمية كبيرتين، ويمكن أن نلمس هذه الأهمية من خلال النقاط التالية:

- تكمن أهميته في أنه محاولة جادة لوضع أسس جديدة لإعادة قراءة وفهم وتفسير التاريخ عامة والتاريخ العربي والإسلامي خاصة، في ظل الحركية الكبيرة التي يشهدها علم التاريخ في الغرب، خاصةً وأن التاريخ يحتاج إلى إعادة قراءته كلما دعت الظروف والضرورة.
- الكتاب لا توجد فيه أحداث ووقائع، بل فيه وجهات نظر وتصورات، وهو المنهج الجديد في كتابة التاريخ، فالتاريخ عند الدكتور قاسم ليس كتابة أحداث وفق تسلسل زمني، إنما هو ممارسة تقوم على تصورات وافتراضات.
- جل المواضيع التي ناقشها الكتاب إن لم تكن كلها، هي مواضيع لا تزال تلقي بضلالها على الكثير من قضايا المسلمين وعلاقاتهم الخارجية، فالقضايا المطروحة وإن كانت تاريخية إلا أنها لا تقفز فوق الواقع الحالي، إنما تحاول تفسير الراهن بمعطيات تاريخية وهو الدور الفعلي للتاريخ.
- يحمل الكتاب الكثير من الأفكار والقضايا التي يمكن أن يغفل عنها الكثير من المؤرخين، ويمكن أن تكون هذه الأفكار منطلقات جديدة لأجيال المؤرخين الناشئين لدراستها والتعمق فيها نظرا لأهميتها وارتباطها بواقعنا وعلاقتنا مع الآخرين.
- يحاول صاحب الكتاب الكشف عن الجوانب الأخرى من أي حادثة تاريخية وغالبًا ما تكون هذه الجوانب مهملة من طرف المؤرخين سواء القدامى أو المحدثين، لكنها ترد في بعض الأدبيات لا على سبيل التأريخ إنما على أنها تأثير اجتماعي، منها على سبيل المثال لا الحصر، ما أورده الكاتب عن الوجه الأخر للحروب الصليبية أو التتار والعالم العربي.
- تركيز الكتاب على الكثير من الأدوات الأدبية التي يمكن للتاريخ أن يستفيد منها كالرواية والآثار والشعر والمأثور الشعبي، كما نبه إلى ضرورة نشر التاريخ عند الناس وذلك من خلال استغلال السينما والتلفزيون عن طريق الأفلام التاريخية التي تحترم الإطار العام للحادثة التاريخية، كما أنه انتقد السينما التاريخية العربية.
- يطرح الكتاب قضية حساسة في الوقت الراهن، وهي علاقة المسلمين بالأخر (الغرب) وكيف تشكلت هذه الصورة القاتمة في غالب الأحيان، وكيف وجه بعض المفكرين سياسة الغرب، وفي مقابل ذلك يقف المفكرون المسلمون يتفرجون دون الأخذ بسبل تنوير الرأي الخارجي.
- الكتاب ليس موجه فقط للمهتمين بالتاريخ، بل للسياسيين والمفكرين والمثقفين.
- كما أن أهمية الكتاب تكمن من خلال كاتبه المفكر المؤرخ الدكتور قاسم الذي له باع طويل في التأليف والترجمة واطلاع كبير على التاريخ وسيرته ومؤلفاته هي مَنْ تتحدث عنه، كما أنه من المفكرين الذين تجد أفكارهم صدى في الساحة الفكرية.

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449